

إفريقية الحفصية ومعاهدات السلم^(*) مع أوروبا النصرانية

د. منير رويس

المعهد الأعلى لأصول الدين

جامعة الزيتونة (تونس)

المقدمة :

تملك البلاد التونسية موقعا متميزا في حوض البحر الأبيض المتوسط جعلها دائمة الارتباط بمختلف القوى الموجودة على أطراف هذا البحر. فلم تكن تونس بمعزل عن الشعوب الأخرى فتلتقي بها وتتعامل معها ويأخذ نسق التلاقي طابعا سلميا في الغالب وتتخلله أحيانا بعض الهزات بسبب الحروب التي سريعا ما تمحى آثارها وتأخذ العلاقات السلمية طريقها الطبيعي بين الطرفين.

وقد اخترت في هذه الندوة موضوعا يؤكد تواصل العلاقات الخارجية بين المسلمين والمسيحيين رغم الهزات العابرة التي تعطل السير الطبيعي للعلاقات. وحددت إطار البحث بزمان الدولة الحفصية التي كانت قاعدتها تونس والتي تواصل حكمها من سنة 634هـ/1236م إلى سنة 982هـ/1574م. وبما أن هذه الفترة الزمنية طويلة كثيرة الحوادث فقد اتجهت إلى حصر الموضوع بزمان مميز من الدولة وهو عهد التأسيس مع أبي زكرياء (634 - 647هـ/1249 - 1236م) الذي أعلن سيادته على

(*) بحث قدم في ندوة : «الاديان والمذاهب وثقافة السلم» التي نظمها المعهد الأعلى لأصول الدين

أيام 16 - 17 - 18 أفريل 2001.

إفريقية واستقلاله عن الموحدين، وعهد ابنه المستنصر (647 - 675هـ/ 1277 - 1249م) الذي اختص بالقوة والمناعة وهو ما عبّر عنها المؤرخ ابن خلدون بقوله : «وكان شأن هذا المستنصر في ملوك آل بني حفص عظيما وشهرته طائرة الذكر بما انفسح له من سلطان ومُدّت إليه ثغور القاصية من العدوتين... وكانت له في الأبهة والجلال أخبار...»⁽¹⁾.

فكيف كان الحضور النصراني بإفريقية في هذه الفترة ؟ وكيف كانت العلاقات الحفصية بأوروبا النصرانية بجانبها السلمي والمتوتر ؟ وما هي أنواع المعاهدات المبرمة بين الحفصيين والنصارى، وما هي أبرز نتائجها ؟ وما هو أثر هذه المعاهدات في تنظيم حضور الجاليات النصرانية بالمدن الساحلية، وأثرها في ربط مصالح المسيحيين بالسكان المحليين ؟

أولا : الحضور النصراني بإفريقية في القرن السابع للهجرة / 13 للميلاد :

1) أنواع الحضور النصراني بإفريقية :

يرجع وجود المسيحيين في مجتمع إفريقية إلى بداية الحضور الإسلامي بالمنطقة، فهم إلى جانب اليهود يمثلون أهل الذمة ويعتبرون من «الأهالي»⁽²⁾ يتعايشون بأمان مع بقية السكان ويقومون بأنشطة متنوعة كالجارة والصناعة والطب وغيرها وعددهم محدود ويستقرون عادة في المدن الكبرى. وإلى جانب هاته المجموعة المستقرة كانت تزد على إفريقية مجموعات مسيحية أخرى تكون «جاليات» اختلفت أسباب دخولها إلى المنطقة ومنها الأسباب التجارية والدينية والعسكرية وغيرها.

(1) ابن خلدون، العبر، دار الفكر، بيروت 1988، ج6، ص676-675.

(2) إبراهيم القادري بوتشيش، تاريخ المغرب الإسلامي، قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة، دار الطليعة، 1994، ص87.

فمن المسيحيين من وفد للتجارة واستقر بالمدن الساحلية مدة تطول وتقصّر حسب الظروف. وقد استفاد هؤلاء التجار من الانتعاشة التجارية الكبيرة في شبه جزيرة إيطاليا فخرجوا نحو سواحل حوض البحر الأبيض المتوسط عامة ومنها سواحل إفريقية كما سنبين لاحقاً.

ومن المسيحيين من وفد لأسباب دينية تتمثل في الإشراف على تنظيم عباداتهم ومراقبة مصالحهم ومباركتها. ويكون هؤلاء من رجال الدين الذين بعثتهم الكنيسة كالأساقفة والقساوسة. ومن ضمن رجال الدين وفدت على إفريقية الإرساليات التبشيرية التي كانت تقدم بصفة دورية ومهمتها محاولة نشر الديانة المسيحية في مناطق إفريقية. وتحدث النصوص⁽³⁾ عن وجود دير للدومينيكيين بتونس العاصمة انتصب فيه الراهب رايمون مارتين وكان يتقن العربية والعبرية وله علاقات بالمستنصر بالله الحفصي.

ومن الجاليات المسيحية الوافدة على إفريقية في العهد الحفصي الحامية العسكرية التي كانت تتولى حماية السلطان من أخطار القبائل، وتتقاضى مقابل ذلك أجوراً مالية مرتفعة. وغالباً ما يكون هؤلاء الحراس المسيحيون من أصل كتلونى⁽⁴⁾، وربما كانوا من أصول أوروبية مختلفة. ويباشر مهمة الإشراف عليهم وتسييرهم «القائد» المدعو بـ«الكاي» alcayt، وهي كلمة من أصل أسباني.

De Bury, Histoire de saint Louis, Roi de France, Tours 1898, p126. (3)

وانظر أيضاً إلى إشارة برانشفيك (روبار) في كتابه تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى القرن 15 م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ج2، ص455.

(4) Chapoutot-Remedi (Mounira), Tunis „ In : **Grandes villes Méditerranéennes du monde musulman médiéval**, Sous la direction de Jean- Claude Garcin, Ecole Française de Rome, 2000, p241.

ومن المسيحيين القادمين إلى إفريقية، أولئك الذين يقعون أسرى في أيدي المسلمين في الحروب وفي عمليات القرصنة البحرية. والغبريني (ت 704هـ/1304م) الذي عاش في نفس هذه الفترة حدثنا عن كثرة ما تحصل عليه مدينة بجاية من عبيد بيض بسبب السبي، مما خفض من أثمانهم بالمقارنة إلى السود. وكان ثمن الأمة الدميمة السوداء (الوخش) قد ارتفع إلى درجة تساوي قيمة عبيدين أبيضين من أصل أوروبي. وقال في ذلك : «بلغ الحال من كثرة سبي الآدميين أن يباع بيضاوان من الروم بسوداء من الوخش في بجاية»⁽⁵⁾. ويمكن أن نتصور أن المدن الساحلية بإفريقية تشبه مدينة بجاية فكانت تدخلها أعداد من أسرى القرصنة مما ضاعف من وجود المسيحيين بالمنطقة.

(2) أسباب تزايد الحضور الأوروبي بإفريقية :

ساهمت عدة أسباب في دفع التجار الأوروبيين إلى دخول إفريقية والعيش فيها والاستفادة منها. وتتمثل هذه الأسباب في التحول الكبير الذي عرفه الاقتصاد الأوروبي. فبعد فترة الركود الطويلة التي عاشها اقتصاد أوروبا في العهد الوسيط بدأت الانتعاشة الاقتصادية تدب في بعض المناطق الأوروبية منذ القرن الحادي عشر للميلاد. فكانت شبه الجزيرة الإيطالية أول الأماكن التي عرفت انتعاشة اقتصادية لما تتمتع به من موقع استراتيجي متميز في حوض البحر الأبيض المتوسط. وبلغت الانتعاشة ذروتها في المدن التجارية الإيطالية مثل البندقية وجنوة وبيشة التي تراجع فيها النظام الإقطاعي المعتمد على الفلاحة، أمام تصاعد النظام البورجوازي المعتمد أساسا على التجارة.

(5) الغبريني (أحمد)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة من علماء بجاية، حققه وعلق عليه عادل نويهض، ط. 2، بيروت 1979، ص 45.

وبمرور الزمن تضاعف النشاط التجاري الذي تمارسه الجمهوريات الإيطالية، حتى شمل الحوضين الشرقي والغربي للبحر الأبيض المتوسط. أما أسباب تقدم النشاط التجاري الإيطالي إلى درجة بلوغه مرحلة الازدهار الكبير في القرنين 13 و 14م فهي كثيرة. نذكر منها التطور الكبير الذي حدث في التنظيمات التجارية في كل من البندقية وجنوة وبيشة ويتمثل في ظهور «الشركات التجارية». فقد اضطر التجار الأوروبيون إلى تكوين «شركات» مهمتها مضاعفة مقدار رأس المال المستعمل وتجاوز أخطار المنافسة والقرصنة والإفلاس، إذ أنّ هذه المهام لا يمكن مجابهاها بصفة فردية بل تتم بصفة جماعية. وتولت «الشركات التجارية» تمويل التجارة الخارجية عبر المتوسط، ووزعت المسؤوليات بين الأفراد المشتركين فيها مما سمح بمضاعفة الجهد التجاري الذي تقوم به الجمهوريات التجارية الإيطالية عبر البحر الأبيض المتوسط.

ونذكر كذلك سببا آخر ساهم في تطور التجارة الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط وهو المرتبط بتطور الملاحة البحرية عندهم. فقد تقدمت التقنيات البحرية وتحسنت صناعة السفن والقوارب مما زاد في عددها وقدرة حمولتها. واستفاد النقل البحري في هذه الفترة من تطور نظام التأمين على المراكب مما شجع التجار على مضاعفة رحلاتهم نحو إفريقية وغيرها من البلدان التجارية المطلة على البحر.

وكانت إفريقية بدورها سببا آخر من أسباب انتعاش التجارة الإيطالية وذلك بموقعها المتميز القريب من إيطاليا وبكونها حلقة وصل بين حوضي البحر الأبيض المتوسط الشرقي والغربي. ثم باعتبارها سوقا هاما للتبادل التجاري حيث يجد فيها التجار الأوروبيون مكانا ملائما لترويج بضائعهم التجارية التي يجلبونها من أوروبا أو من الشرق الأقصى. ثم إنّ إفريقية

هي مجال تتوفر فيه بضائع عديدة يرغب في استهلاكها الأوروبيون كالمواد النباتية والحيوانية.

ولتيسير عملياتها التجارية وتحقيق أمن تجارتها أبرمت الدول الأوروبية اتفاقيات ومعاهدات مع سلطات إفريقية. وكانت الدولة الحفصية نفسها في حاجة إلى هذه الاتفاقيات لإظهار سيادتها على البلاد ولتحقيق الأرباح من ورائها. فالتاجر الأجنبي مدعو إلى دفع الضرائب القمرقية التي تستفيد منها خزينة الدولة ولا سبيل إلى الاستغناء عنها.

ثانياً : علاقات الدولة الحفصية بالدول النصرانية :

تعتبر العلاقات السلمية بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية التي يأتي منها المسيحيون أمراً معتاداً، وحالات التوتر تعتبر استثناءً. ويأتي التوتر بسبب عمليات القرصنة البحرية التي يقوم بها الطرفان، أو بسبب الحرب التي شنتها فرنسا على تونس سنة 1270م وتعرف بالحملة الصليبية الثامنة.

(1) التواصل بين الحفصيين والمسيحيين :

كانت العلاقات الدبلوماسية تربط بين ملوك النصارى والحكام الحفصيين وخاصة منهم المستنصر الذي كانت تجتمع به فرنسا لويس التاسع علاقات متينة متمثلة في تبادل السفراء. وتذكر المصادر أن المستنصر كان يبعث سفارات إلى أوروبا للتفاوض في مسائل عالقة يرأسها القاضي أبو علي الحسن بن موسى بن معمر. ونقل الغبريني⁽⁶⁾ في كتابه عنوان الدراية أن المستنصر أنكر مرة على هذا القاضي بعض ما توصل إليه بعد التفاوض مع النصارى مما أدى الأمر إلى حصول

(6) الغبريني، ن.م، ص100.

القطيعة بينهما. وهجر القاضي ابن معمر مجلس السلطان مدة من الزمن ولما أراد العودة إلى المجلس قال بيتين شعريين كلف أحد الشيوخ بقراءتها على السلطان، وجاء فيهما :

واحسرتي في مقام بين أظهركم قوم رجاؤهم باليأس مفضوح
صدّوا وسدّوا عن المضرب بابهم وما دروا أن باب الله مفتوح

فلما سمع السلطان الحفصي البيتين الشعريين عفا عنه وأرجعه إلى مجلسه، وقد يكون حمّله نفس المهام المتعلقة بالعلاقات بين الحفصيين والأوروبيين.

كما ارتبطت الدولة الحفصية بالجمهوريات الإيطالية (البندقية وبيشة وجنوة) وهو ارتباطا تجاري على الأساس وارتبط الحفصيون كذلك بصقلية القريبة جدا منهم وكانت توجد بينهما علاقات تجارية وديبلوماسية مختلفة. وكانت صقلية قد اكتسبت قيمة بحرية منذ غزاها نورمان - إيطاليا واستقروا بالرمو سنة 1072م. وصقلية هي الوحيدة من بين جميع الدول الأجنبية التي حصلت على موافقة سلطان إفريقية ليدفع لها ضريبة نقدية سنوية. واعتبر برانشفيك أن هذا لم يكن يعني مطلقا تبعية إفريقية لصقلية سياسيا ⁽⁷⁾. فالأمر يتعلق بضمان حرية الملاحة والتجارة للصقليين. ولم تكن تونس تدفع تلك الضريبة لصقلية بصفة منتظمة ودائمة وهو ما اعتبر سببا من أسباب توجيه الحملة الصليبية الثامنة على تونس مثلما سندرس لاحقا.

طرف نصراني آخر ربطته علاقات بالحفصيين وهو أرغونة وهي مملكة أسبانية تقع شمال شرق أسبانيا الحالية تقوت وتوسعت إلى درجة اكتساح مناطق واسعة من الشواطئ المتوسطية. وهيمنت على صقلية مدة

(7) برانشفيك، تاريخ إفريقية، ج2، ص 454.

من الزمن الشيء الذي ساعدها على الهيمنة على إفريقية بعدما أصبحت قريبة منها. والمعلوم أن أرغونة هي التي صارت تتولى أخذ الضريبة من تونس بدل صقلية انطلاقا من سنة 1314م وتواصل ذلك حوالي نصف قرن من الزمن حتى استطاع السلطان القوي أبو العباس تخلص تونس من هذه الضريبة المجحفة.

(2) توتر العلاقات بين الحفصيين والمسيحيين : توتر بسبب القرصنة :

نشطت عمليات القرصنة في مياه البحر الأبيض المتوسط واستهدفت السفن المعادية ومارس المسلمون والمسيحيون هذا النشاط في نفس الوقت. وتشير النصوص إلى بعض عمليات القرصنة التي قام بها البحارة المسلمون ضد السفن والشواطئ المسيحية في مناطق مختلفة من البحر الأبيض المتوسط نذكر منها مثالين⁽⁸⁾. أولهما وقع سنة 1238م لما هاجم أسطول حفصي بينيسكولا الأسبانية. وثانيهما وقع حوالي سنة 1248م لما أنزل التونسيون قواتهم بولانسا بالساحل الجنوبي لميورقة الأسبانية.

وهذه العمليات القرصنية تبرز رغبة الحفصيين في فرض وجودهم في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط وتعتمد في ذلك على امتلاك قوة بحرية قادرة على مجاراة باقي القوى المسيحية في البحر. ويؤكد الباحث ديفورك أن السفن الإسلامية كانت أكثر عددا من السفن المسيحية في البحر الأبيض المتوسط في القرون الأخيرة من العهد الوسيط⁽⁹⁾، مما يعني قدرتها على التنقل في البحر لتحقيق أغراضها. فالحفصيون كانوا قادرين بامتياز على صنع السفن وركوب البحر حسب ما يذهب إليه

(8) Dufourcq (Ch. E), commerce du Maghreb médiéval avec l'Europe chrétienne et marine musulmane, données connues et politiques en suspens, p170.

Dufourcq (Ch. E), Ibid. (9)

ديفورك الذي رفض رأي الباحث روبر بارانشفيك⁽¹⁰⁾ الذي قال إن المسلمين تدهورت قدراتهم البحرية بالمقارنة إلى تنامي قوة المسيحيين في هذا المجال.

أما من الجانب النصراني فكانت عمليات القرصنة تستهدف سفن المسلمين وشواطئهم. وقد أقدم المسيحيون عدة مرات على احتلال سواحل إفريقية أو جزء منها. وكانت التوترات بسبب القرصنة تفضي إلى اضطراب العلاقات بين الطرفين.

توتر بسبب الحملة الصليبية الثامنة :

حصل أهم توتر في العلاقات بين الحفصيين والنصارى مع الحملة الصليبية الثامنة التي استهدفت تونس سنة 1270م وكانت بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا. والدارس لتاريخ هذه الحملة على تونس يلاحظ أن الظرفية لا تشير إلى إمكانية حصول توتر بين تونس عاصمة الحفصيين وفرنسا لأن العلاقات القائمة بينهما كانت عادية أو هي طيبة حسب ما لاحظها الباحثون، ولا وجود لمؤشرات حرب بينهما، ومع ذلك وقعت الحملة.

وترجع الحملة على تونس إلى عدة أسباب، فبالإضافة إلى الأسباب العامة التي تندرج في إطار الصراع الإسلامي المسيحي في العصر الوسيط، هناك أسباب خاصة أولها الخلاف بين المستنصر الحفصي وملك صقلية شارل دانجو أخي لويس التاسع حول الإتاوة السنوية التي تدفعها الدولة الحفصية لمملكة صقلية. فقد بلغت الدولة الحفصية درجة من القوة في عهد المستنصر الحفصي جعلته يمتنع عن دفع الإتاوة التي دأب أبوه

(10) برانشفيك، تاريخ إفريقية، ج1، ص96.

على دفعها للنورمان. كما عمل على حماية بعض المعارضين اللاجئين بتونس وشجعهم على القيام بحملات ضد صقلية مما أثار ملكها على الحفصيين وأصبح يترصد الفرص للقيام بعمل عسكري ضد تونس.

ويعتبر ابن خلدون أن من أسباب الحملة الصليبية على تونس أن بعض التجار الإفرنج ادعوا «أنهم أقرضوا اللياني فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك وهو نحو ثلاثمائة دينار بغير موجب يستندون إليه فغضبوا لذلك واشتكوا إلى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في تونس... فأرسل إلى ملوك النصراني يستفزهم إلى غزوها»⁽¹¹⁾. كما يمكن أن نضيف إلى هذه الأسباب هزيمة لويس التاسع أثناء الحملة السابعة ضد مصر وأسرته من طرف الأيوبيين ورغبته في الثأر من مصر وذلك بمهاجمتها عن طريق البر مروراً بإفريقية.

كل هذه الأسباب مجتمعة دفعت بالملك الفرنسي وأخيه شارل دابجو إلى القيام بحملة عسكرية ضد تونس هي الحملة الثامنة التي تطورت أحداثها بنسق سريع⁽¹²⁾.

انطلقت الحملة من ميناء آف مورت بجنوب فرنسا مروراً بجزيرة سردينيا فصقلية فتونس. وآثر السلطان الحفصي المستنصر عدم اعتراضهم حتى لا يتفرقوا في السواحل، فنزلوا بقرطاج يوم 18 جويلية 1270م.

(11) ابن خلدون، العبر، ج6، ص675.

(12) تحدثت عدة مصادر عن الحملة الصليبية الثامنة على تونس نذكر منها: العبر لابن خلدون، والأدلة البينة النورانية لابن الشماخ، والفارسية لابن القنفذ. ودرست عدة مراجع هذه الحملة نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر تاريخ إفريقية لبراشفيك، ومقال أحمد الطويلي في كتابه في الحضارة العربية الإسلامية بعنوان "فشل الحملة الصليبية الثامنة على تونس"، وكذلك:

De Burý, Histoire de Saint Louis Roi de France, Tours, 1898.

وجمع السلطان الحفصي قواه المتكونة من الجيش النظامي والقبائل المتطوعين. وبالمقابل حاصر الجيش الصليبي تونس دون مهاجمة البلاد وطال الحصار فمن ناحية الحفصيين كان الترقب والانتظار يسودان الموقف حتى يجتمع المزيد من المدافعين في حين كان الملك الفرنسي لويس التاسع ينتظر قدوم أخيه شارل دانجو. وفي هذه الظروف انتشر بين جنود لويس التاسع داء الطاعون الذي فتك بكثير من الخلق منهم الملك نفسه الذي توفي في 25 أوت 1270م. وخلفه شارل دانجو على قيادة الجيش. ودام الحصار أكثر من شهرين ثم خلالها إبرام معاهدة صلح تحتوي على عدة تنازلات لفائدة الصليبيين وستناولها بالدراسة في آخر هذه العمل.

ثالثا : المعاهدات الحفصية مع النصارى :

عقدت إفريقية جملة من المعاهدات مع النصارى في هذه الحقبة من الزمن وهي المعاهدات التجارية ومعاهدة الصلح المنعقدة عقب الحملة الصليبية الثامنة على تونس.

(1) المعاهدات التجارية ونتائجها :

يقول الباحث ديفورك إنه لا يمكن أن نعرف عدد المعاهدات المبرمة بين الحفصيين والدول النصرانية لأنها لا زالت مبعثرة في الأرشيف الأوروبي⁽¹³⁾. وخلال قيامي بهذا البحث أمكنني الاطلاع على البعض منها بفضل ما نشره الباحثون المختصون بما سمح لي بالخروج بعدة نتائج تهم تاريخ هذه المعاهدات والأطراف المتعاهدة ومدة العهود المتفق عليها.

نلاحظ أن تاريخ إبرام إفريقية للمعاهدات مع النصارى يعود إلى زمن سابق للحفصيين، فقد أبرمت بيشة في عهد عبد الله بن خراسان

(13) لم تتضمن المصادر العربية أية إشارة للمعاهدات التجارية في العهد الحفصي.

معاهدة تعدّ من أقدم ⁽¹⁴⁾ المعاهدات التجارية والملاحة المبرمة بين إفريقية الشمالية وبلاد النصارى ويعود تاريخها إلى شهر جويلية 1157م. وقامت إفريقية فيما بعد بعقد معاهدات مع أطراف نصرانية أخرى بالإضافة إلى بيشة، ومنها البندقية وجنوة بمعنى الجمهوريات الإيطالية التجارية المستقلة وكذلك صقلية وأرغونة.

والملاحظ في هذه المعاهدات أنها تنص على المدة التي تبقى فيها المعاهدة سارية المفعول. وتختلف هذه المدة حسب الطرف المتعامل معه. فقد ضبّطت الاتفاقيات مع جنوة مدة عشر سنوات لكل المعاهدات وذلك في العقود المؤرخة في سنوات 1236 و1251 و1260 و1272م. وتحددت المدة بأربعين سنة مع البندقية في العقود المبرمين سنتي 1231 و1251م بينما حددت بأربع سنوات فقط بالنسبة للعقد المؤرخ في سنة 1271م. وتحددت المدة في الاتفاقيات مع جنوة بثلاثين سنة بالنسبة إلى معاهدة 1234م ومدة عشرين سنة بالنسبة إلى معاهدة 1264م.

ونلاحظ أن المعاهدة يتم تجديدها أحيانا قبل انقضاء المدة ويعود ذلك إلى وجود طارئ يسيء إلى العلاقات بين الأطراف المتعاهدة. ويتمثل الطارئ إما في عمليات اعتداء نصراني على سواحل إفريقية أو قيام بعض البحارة المسلمين بعمليات قرصنة ضد السفن المسيحية. ولما يحصل الطارئ تتوتر العلاقات مدة وينتهي الأمر بإعادة إبرام المعاهدة من جديد. فقد اضطرت تونس إلى إعادة المعاهدة مع البندقية في نصف المدة المتفق عليها فقد أبرمت سنة 1231م لأمد يصل إلى سنة 1271م لكنها جددت سنة 1251م مما يدل على حدوث معطيات جديدة أرغمت على تجديد الاتفاقية بين تونس والبندقية.

(14) Chapoutot - Remedi (Mounira), op.cit,p241.

ولاحظ الباحث روبر بارانشفيك وجود تشابه في محتوى مختلف المعاهدات فهي تنتهي إلى تأكيد السلم بين الحفصيين والنصارى في إفريقية وبحارها. ويمكن اختصار الأحكام الواردة في هذه المعاهدات بما يلي (15) :

- ضمان الأمن المتبادل للملاحة مع إلغاء حق الغرق وهذا أمر مشترك بين الجانبين.
- إطلاق سراح أسرى القرصنة.
- تحديد مبادئ تعاطي التجارة واستقرار النصارى في دار الإسلام :
- كاستخلاص أداء العشر أو نصف العشر باعتباره ضريبة أساسية موظفة على أغلبية البضائع والبيع بالمزاد العلني أو بواسطة السماسرة.
- تحجير فرض المسؤولية الجماعية بصورة آلية على النصارى ومصادرة تركاتهم.
- الاعتراف بقناصلهم وبالقضاء القنصلي.
- منحهم الامتيازات اللازمة لاستقرارهم في بعض الموانئ، مثل حق بناء الفنادق.
- عدم تشجيع القرصنة ومعاقبتهم بل يصل الأمر إلى اشتراك النصارى مع المسلمين في مطاردة مواطنيهم المسيحيين الذين يكونون قد ألقوا أضرارا بأهالي إفريقية.

2) معاهدة الصلح التي عقبت الحملة الصليبية الثامنة على تونس :

كنا أشرنا إلى موت لويس القديس بالوباء واضطرار الطرفين إلى التفاوض وإنهاء حالة الحرب. وتتناول فيما يلي ظرفية إبرام المعاهدة حسب ما ذكرته المصادر.

(15) انظر برانشفيك، تاريخ إفريقية، ج1، ص56 - 96.

يقول المؤرخ ابن الشماخ إن المستنصر حاول أن يثني عزم لويس القديس عن التوجه إلى تونس وطلب منه المهادنة، لكن الملك الفرنسي «امتنع من ذلك وأغلظ للرسول وعرفه أنه متوجه إليه»⁽¹⁶⁾. وأضاف ابن خلدون أن المستنصر بعث للويس القديس ثمانين ألف دينار ذهباً طلباً للمهادنة فرفض كما ذكرت⁽¹⁷⁾. فالتأكد هو أن المستنصر كان يرغب في التصالح مع النصارى والاتفاق معهم وقد خصص جماعة كلفهم بالتفاوض مع النصارى من أجل فرض السلم.

ولما مات لويس التاسع صارت مبادرة طلب الصلح من النصارى أنفسهم. قال ابن خلدون إن العليجة زوجة لويس القديس هي التي راسلت المستنصر في الصلح وطلبت أن يبذل لها تعويضات عن خسائر الحملة⁽¹⁸⁾. واستعمل ابن خلدون كلمة «أسعف» للدلالة على أن السلطان تنازل بموافقته على التصالح مع النصارى. ومعنى هذا أن السلطان الحفصي كان على استعداد دائم ليرم الصلح خوفاً من الخسائر وتفادياً لإمكانية تفرق القبائل التي قدمت له المدد اللازم عند بدء الحملة الصليبية على تونس حيث إن هذه القبائل بدأت تستعد لانطلاق موسم فلاحى جديد.

ونذكر هنا جوانب أخرى من مسألة التفاوض والصلح بين الحفصيين والنصارى. فالقائم بالتفاوض هو أحد رؤساء القبائل (محمد بن عبد القوي) أي أنه لم يكن من الفقهاء أو القضاة أو كذلك أحد رجال الدولة من شيوخ الموحدين. ويوحى هذا بأن التفاوض لم يقبله كل الأطراف بإفريقية وعثرنا على نص مهم يؤكد هذا الاتجاه والنص أورده الغبريني

(16) ابن الشماخ (أبو عبد الله محمد بن أحمد)، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم د. الطاهر العموري، الدار العربية للكتاب 1994م ص70.

(17) ابن خلدون، العبر، ج6، ص426.

(18) ابن خلدون، ن.م، ج6، ص429.

في كتابه عنوان الدراية يخص أحد الفقهاء الذي رفض بصفة قطعية أن يكون من بين الشهود على معاهدة الصلح. فالسلطان الحفصي سعى قبل إبرام الصلح إلى استشارة الفقهاء وتشريكهم في الشهادة على وثيقة تنص على أن الصلح هو «صلاح وسداد في حق المسلمين» والفقهاء الذي رفض التوقيع على المعاهدة هو أبو العباس أحمد بن عثمان بن عجلان القيسي، من فقهاء بجاية (ت. 676هـ/1271م). قدم إلى تونس في تلك الفترة وقال الغبريني عنه إنه رفض تولي قضاء إفريقية كما رفض الاجتماع بالمستنصر بالله الحفصي. ولما طلب المستنصر أن يصل منزله بنفسه استعفى من ذلك ورفض مقابلته. وتحدث عنه الغبريني في مسألة الصلح مع الفرنسيين بما يلي : «وذكر لي أنه لما كان الصلح الواقع بين المسلمين والنصارى عام نزول الافرنسيين على تونس، كتب رسم شهد فيه مشايخ الفقهاء أن الصلح المذكور صلاح وسداد في حق المسلمين، وطلب الفقيه أبو القاسم ابن البراء رحمه الله أن يكون من جملة شهوده الفقيه أبو العباس ابن عجلان فاستحضر بدار الأمير وبمحضر الفقهاء وفيهم الفقيه أبو القاسم ابن البراء وأمير المؤمنين، بحيث يسمع، فقبل له : تشهد في هذا الصلح ؟ فقال : إني لا أعلم الحال، يشهد من يعرف الحال، فقال له الفقيه أبو القاسم هذا الصلح جائز أو غير جائز ؟ فقال له مجابوا : إن كان صلاحا وسدادا في حق المسلمين فهو جائز وإن لم يكن كذلك فهو غير جائز. فقال له هو صلاح وسداد أو لا ؟ فقال له لا أعلم لي بالحال، فقال له لا بدّ لك من الجواب. فسمع نقر أمير المؤمنين من وراء الحجاب وهو يشير إلى انقضاء المجلس، فانفض ولم يشهد وحمد في جوابه ومقاله، واستحسن ذلك من حاله» (19).

(19) الغبريني، عنوان الدراية، ص 100.

وانتهى الأمر بين الحفصيين والمسيحيين إلى إمضاء معاهدة الصلح بين الطرفين، وحملت المعاهدة توقيع ثلاثة أشخاص هم القاضي الفقيه عبد الحميد بن أبي الدنيا الصدفي (لا أحمد بن الغماز كما ذكر ابن خلدون)، وكذلك القاضي الفقيه ابن زيتون ومعهما أحد موظفي الدولة علي بن عمر التميمي. وكان تاريخ إمضاء المعاهدة هو 30 أكتوبر 1270م، وغادر الصليبيون إفريقية بين يومي 10 و18 نوفمبر 1270م واتجهوا صوب تراباني بإيطاليا. وزادت أوضاعهم سوءا لما أغرقت العواصف عددا من سفنهم وهي في طريق عودتها إلى الأراضي الأوروبية. وبذلك كانت هذه الحملة فاشلة عسكريا ولكنها حققت مكاسب مادية للمسيحيين.

إن أهم ما اشتملت عليه اتفاقية الصلح مع النصارى هو ما يلي (20) :

عقد هدنة بين الطرفين لمدة خمسة عشر سنة. وأن يقع احترام مصالح الطرفين الدينية والتجارية. وألا يتعرض الصليبيون لجهة من جهات المسلمين التابعة لسلطان تونس حالا أو مآلا.

كما تضمنت الاتفاقية تعهدا من المستنصر بدفع ضريبة مقدارها مائتي ألف أوقية من الفضة نصفها معجل والنصف الثاني يدفع على عامين. وتعهد آخر من المستنصر لشارل دأنجو صاحب صقلية بدفع إتاوة سنوية زيادة على إتاوة السنوات الخمس الماضية.

ومن تبعات الاتفاقية عودة النشاط التجاري مع المسيحيين وذكر ابن الشماخ ذلك بقوله : «ودخل المسلمون محلة النصارى وباعوا

(20) انظر نص المعاهدة التي نشرها محمد العروسي المطوي في مجلة «الحياة الثقافية»، عدد 15، 16، لسنة 1981.

معهم واشتروا وكانت مدة إقامتهم بتونس أربعة أشهر وعشرة أيام» (21).

من جهة أخرى أعاد المستنصر إبرام المعاهدات التجارية مع النصارى بعد مرور وقت وجيز من الاتفاقية المبرمة عقب الحملة الصليبية الثامنة على تونس. فبعد أقل من ثلاثة أشهر من ارتحال الصليبيين أبرم مبعوث المستنصر يوم 17 فيفري 1271م في بلنسية معاهدة مع أرغونة ومدتها عشر سنوات. كما أبرمت معاهدة مع البندقية في أوائل جوان 1271م وأخرى مع جنوة يوم 6 نوفمبر 1272م.

رابعا : أثر المعاهدات في التنظيم النصراني بإفريقية :

كانت هذه المعاهدات إذن ذات طابع سلمي حيث ضمنت استقرار جاليات من المسيحيين بمدن إفريقية الساحلية ومكنتهم من العيش بأمان واستفادوا اقتصاديا وشاركوا السكان في نشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية.

(1) استقرار الجاليات المسيحية بإفريقية :

كانت المدن الساحلية هي مكان استقرار الجاليات المسيحية مثل سبتة والجزائر وبجاية وبونة وتونس والمهدية وصفاقس وقابس وجربة وطرابلس. وقد عدّ أحد الباحثين خمسة عشر مركزا لإقامة هذه الجاليات (22). وكان تنظيم حياة الجالية المسيحية يتم بواسطة قنصل وعادة ما يكون من التجار. وهو المسؤول عن إدارة شؤون جالية بلاده ورعاية مصالحها ودفع الظلم عنها إذ كان يحق لكل قنصل مقابلة السلطان إذا جدّ

(21) ابن الشماخ، الأدلة البيّنة، ص 72.

(22) ذكره ابراهيم القادري بوتشيش، في المرجع الذي سبق ذكره، ص 95.

حدث مهم في العلاقات التي تربط أفراد جاليتهم بالسكان المحليين. وكان على القنصل مهمة الإشراف على وصول السفن التجارية التابعة لمدينته إلى موانئ إفريقية.

كما وجد القضاة وهم تحت إمرة القنصل ودورهم يتمثل في فض النزاعات. وفي الأرشيف وثيقة قرار تعيين قضاة من طرف محافظ مدينة بيشة يهم التجار المقيمين بتونس بتاريخ 8 ماي 1240م⁽²³⁾.

وكانت الفنادق هي مقرات إقامة المسيحيين، وهي موجودة بالمدين الساحلية ذات القيمة. والفنادق في مدينة تونس مثلا موجودة إلى جانب دار الصناعة شرقي المدينة بين باب البحر والبحيرة. والفندق هو عبارة عن سوق عمومية حيث يلتقي التجار بالباعة والزبائن والحمالين والمترجمين والمحتسين العاملين والعدول الرسميين المكلفين بتسجيل العقود والصفقات الرسمية ويستمتع الإنسان فيه إلى لغات متعددة ويلتقي بمجموعات بشرية تعتنق ديانات مختلفة : الإسلام والمسيحية واليهودية.

فالجاليات المسيحية حظيت بوضعية دينية يسودها روح التسامح نظرا لما تجده من حرية في العيش وفي ممارسة الطقوس الدينية. كما أنها حظيت وتمتعت بوضعية اقتصادية حسنة وهي أساسا وضعية التجار الذين كانوا أبرز المستفيدين من إبرام المعاهدات التي تمكن من حرية تنقل البضائع بين مدن إفريقية الساحلية وأوروبا النصرانية.

وكان هؤلاء التجار ينقسمون إلى قسمين⁽²⁴⁾ : إما تجار يملكون رأس مال ثابت ويقيمون في أوروبا ويعيّنون وكلاء عنهم. وإما تجار لا يملكون

- Maslatrie, Traité de paix et de commerce et documents divers (23) concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen age, Paris, 1866-1875, p35.

(24) انظر للمقارنة ما ذكره إبراهيم القادري بوتشيش، في المرجع الذي سبق ذكره، ص94.

رأس مال، ويشغلون لصالح الفنة الأولى ويكتفون بالربح الذي يحققونه في المدن الساحلية بإفريقية.

(2) ترابط مصالح المسيحيين بالسكان المحليين :

تعددت أوجه ترابط مصالح المسيحيين بالسكان المحليين. منها الاشتراك في بعض المشاريع مثل ملكية السفن والقوارب. وقد أشارت وثيقة مؤرخة في سنة 1270م أن بحارا فلنسيا باع بموافقة حاكم أرغونة منابات من قاربه إلى جماعة من مسلمي تونس وبجاية. وفي 1277م اشترى بحار تونسي مسلم آخر خمسة أثمان (8/5) سفينة وأبقى الباقي أي ثلاثة أثمان (8/3) لأحد أهل بيشة الذي اضطر إلى بيع مناباته فيما بعد (25).

كما كان المسلمون يستعملون السفن المسيحية في رحلاتهم وأخذ بضائعهم إلى مناطق أخرى للالتجار بها بل إن بعض رحلات الحج كانت تتم بواسطة سفن مسيحية ونذكر في هذا السياق الرحالة المغربي ابن جبير الذي رحل إلى الحج مع جماعة من المسلمين بين سبتة والاسكندرية في سفينة جنوبية وذلك بين 24 فيفري و26 مارس من سنة 1183م.

ولعب النصارى دورا اجتماعيا بارزا في المجتمع يدل على التعايش بين المسيحيين والمسلمين. فقد لجأ عدد من الأثرياء وخاصة منهم الأمراء والملوك إلى الارتباط بجواري مسيحيات والإنجاب منهن (26). ومن الأمثلة على ذلك عطف أم المستنصر بالله الحفصي التي كانت لها مكانة

Dufourcq (Ch. E), op.cit p180 (25)

(26) توصلنا في أطروحة الدكتوراه التي أعدناها (الزواج في العهد الحفصي) إلى أن 14 حاكم حفصيا أمهاتهم من الجواري 6 منهم من جواري مسيحيات من عطف أم المستنصر وضرب أم الواثق، وأملح الناس أم أبي بكر الثاني وسعد السعود أم الأمير أبي العباس أحمد والي قفصة، وعطف أم أبي العباس أحمد الفضل وريم أم أبي عمرو عثمان.

بارزة في الدولة والمجتمع وقد أعلنت إسلامها وأنشأت جامع الهواء والمدرسة التوفيقية⁽²⁷⁾. كما كان النصارى يشاركون المسلمين في حفلاتهم كالزواج والختان ومنهم من لبس لباسا إسلاميا تشبها بالمسلمين.

ومكن دخول النصارى إلى مدن إفريقية وتحديدا إلى مدينة تونس إلى جعل هذه المدينة متنوعة عرقيا ومتنوعة دينيا ومن المفترض أن تكون متنوعة لغويا. فقد أشارت الباحثة منيرة شابتو إلى تأثير التجار والحراس الأجانب والجواري المسيحيات في اللغة إذ أضيفت إلى اللغة العربية المتكلم بها كلمات من اللغة الإيطالية واللغة الأسبانية مما أثرى زادهما اللغوي ونوعه. ومن الممكن أن نجد لغة واحدة يستعملها التجار في مختلف المدن التجارية المتوسطة في تلك الفترة الإسلامية والمسيحية.

الخاتمة :

مثلت إفريقية أرض لقاء بين مختلف الشعوب والثقافات وقد عاش المسيحيون بأمان في أرضها ومكنت المعاهدات من تأكيد هذا الأمان الذي تواصل عبر العصور. لكن مفعول المعاهدات كان يتقطع بسبب حصول اضطرابات سريعا ما تهدأ ويعود السلم من جديد ليقترن بحيوية في مستوى العلاقات الدبلوماسية والتجارية. ووجود هذه العلاقات مع المسيحيين يذكرنا بعلاقات أخرى كانت تجمع بين الحفصيين ومناطق المشرق الإسلامي و بلاد السودان والأندلس، وهي علاقات متميزة بكثافتها وحيويتها ودراستها مهمة لتجلي المكانة العالمية البارزة التي حظيت بها الدولة الحفصية في هذه الحقبة من الزمن.

(27) انظر ابن الشّماخ، الأدلة البينة، ص63، والزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، الطبعة الثانية، المكتبة العتيقة، تونس 1966، ص33.